التصوف وصفة رسالة واختصاصه بعلوم الباطن

للمؤرخ الصوفى الاول أبو سراج الطوسى

يحدثنا هنا عبر القرون والسنين ، أكبر المؤرخين لمادة التصوف الاسلامى ورجاله ، الامام أبو سراج الطوسى ، فى كتابه الخالد « اللمع » عن التصوف ونعته وماهيته ، وعلوم الباطن ، وحديث الطوسى دائما ، هو الحجة الغالبة ، والآية الساطعة ، انه يمسك بيده المصباح المضىء فى طريق التصوف ليرشد الناس الى ينابيعه ، وثماره ، وهديه ونوره .

قال الامام الشيخ : فأما التصوف ونعته وماهيته ، فقد سئل محمد ابن القصاب ، وهو أستاذ الجنيد رحمه الله عن التصوف . ما هو ؟ .. قال : « أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام » ، وسئل رويم بن احمدرحمه الله عنالتصوف . فقال : « استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده ، وسئل سمنون رحمه الله عنالتصوف ؟ فقال : « ان لا تملك شيئا ، ولا يملكك شىء » ، وسئل أبو محمد الحريرى رحمه الله عن التصوف ؟ .. فقال : « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ، وسئل عمرو بن عثمان المكى رحمه الله عن التصوف . فقال : « أن يكونالعبد فى كل وقت أعلم بما هو أولى فى الوقت » وسئل على بن عبد الرحيم القناد رحمه الله عن التصوف ؟ فقال : « نشر مقام ، واتصال بدوام » .

وأما صفة الصوفية ومن هم ؟ فقد قيل لعبد الواحد بن زيد ، من الصوفية عندك ؟ فقال : « القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم » . وسئلذو النون المصرى عن الصوفى ؟ .. فقال : « هو الذى لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سلب » وقال أيضا : « هم قوم آثروا الله تعالى على كل شىء ، فآثرهم الله على كل شىء » . وقيل لبعضهم من أصحب ؟ .. فقال : « اصحب الصوفية ، فان للذنب عندهم وجوها من المعاذير ، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعوك به ، فتعجب نفسك .. وسئل الجنيد بن محمد رحمه الله

عن الصوفية . منهم ؟ فقال : اثرة الله فى خلقه ، يخفيهـا اذا أحب ويظهرها اذا أحب » . وقيل لأبى الحسين احمد بن محمد النورى : من الصوفى ؟ فقال : « من سمع السماع ، وآثر بالاسباب » ، وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء ، ويقولون قد سماهم الله تعالى فقراء ، فقـال : « **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم** » وقوله تعـالى « **للفقـراء الذين احصروا فى سبيل الله** » .

وقيل لأبى عبد الله احمد بن محمد بن يحيى الجلاء ، ما معنى الصوفى؟ قال : « ليس نعرفه فى شرط العلم ، ولكن نعـرفه فقيرا مجـردا من الاسباب ، كان مع الله عز وجل بلا مكان ، ولا يمنعه الحق من علم كل مكان » . وسئل أبو الحسن القناد عن معنى الصوفى ؟ فقال : « مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل فى كل وقت بشرط الوفاء » ، وقال بعضهم : « من اذا استقبله حالان أو خلقان حسنان ، فيكون مع الأحسن والاعلى » ، وسئل آخر عن معنى الصوفى ؟ .. فقال : « معناه أن العبد اذا تحقق بالعبودية ، وصافاه الحق حتى صفا من كـدر البشرية ، نازل منازل الحقيقة ، وقارن أحكام الشريعة ، فاذا فعل هذا فهو صوفى » .

قال الشيخ : فاذا قيل لك الصوفية من هم فى الحقيقة ، صفهم لنـا فقل : هم العلماء بالله ، العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بمـا استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا » .

ولبعض المشايخ فى التصوف ثلاثة أجوبة ، جواب بشرط العلم ، وهو: تصفية القلوب من الاكدار ، واستعمال الخلق مع الخليقة ، واتباع الرسول فى الشريعة ، وجواب بلسان الحقيقة ، وهو : عدم الاملاك ، والخروج من رق الصفات ، والاستغناء بخالق السموات ، وجواب بلسان الحق ، وهو : أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم فسموا صـوفية » . وقلت للبحصرى من الصوفى عندك ؟ .. قال : « الذى لا تقله الارض ولا تظله السماء . معناه انه وان كان على الأرض ، وتحت السماء ، فالله عز وجل ، الذى يقـله بالارض ، ويظله بالسماء » .

وان سأل سائل فقال : لم نسمع بذكر الصوفية فى أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فيمن كان بعدهم ، ولا نعرف الا العبـاد والزهاد والسياحين وما قيل لأحد من أصحاب الرسول عليه السلام ، صوفى ؟ ..

فنقول وبالله التوفيق ، الصحبة مع رسول الله صلوات الله عليه لهـا حرمة وتخصيص من شمله ذلك ، فلا يجوز أن يعلن عليه اسم على انه

أشرف من الصحبة ، وذلك لشرف رسول الله صلى الله عليه وحرمته ، الا ترى انهم أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين ، والراضين والصابرين والمخبتين ، وغير ذلك ، وما نالوا جميع ما نالوا الا ببركة الصحبة مع رسول الله ، فلما نسبوا الى الصحبة التى هى أجل الاحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التى هى أجل الاحوال .

وأما قول القائل انه اسم محدث أحدثه البغداديون . فمحال ، لأن فى وقت الحسن البصرى كان يعرف هذا الاسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عنه انه قال : « رأيت صوفيا فى الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى » ، وروى عن سفيان الثورى . انه قال : « لولا أبو هاشم الصوفى ما عرفت دقيق الرياء » ، وقد ذكر فى الكتاب الذى جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن اسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثا . ان قبل الاسلام قد خلت مكة فى وقت من الاوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفى فيطوف بالبيت وينصرف ، فان صح ذلك يدل على ان قبل الاسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان ينسب اليه أهل الفضل والصلاح .

فان أنكرت طائفة من أهل الظاهر . وقالوا : لا نعرف الا علم الشريعة الظاهرة التى جاء بها الكتاب والسنة ، وقالوا : لا معنى لقولكم : علم الباطن وعلم التصوف ..

فنقول أن علم الشريعة علم واحد ، وهو اسم واحد يجمع معنيين ، الرواية والدراية ، فاذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية الى الاعمال الظاهرة والباطنة ، ولا يجوز أن يجرد القول فى العلم انه ظاهر أو باطن، لأن العلم متى ما كان فى القلب فهو باطن فيه الى أن يجرى ويظهر على اللسان ، فاذا جرى على اللسان فهو ظاهر ، غير أنا نقول : ان العلم ظاهر وباطن ، وهو علم الشريعة ، الذى يدل ويدعو الى الاعمال الظاهرة والباطنة ، والاعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة ، وهى العبادات والاحكام ، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك من هذه العبادات ، وأما الاحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها فهذا كله على الجوارح الظاهرة التى هى الأعضاء وأما الاعمال الباطنة فهى كأعمال القلوب ، وهى المقامات والاحوال ، مثل التصديق والايمان واليقين والصدق والاخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة والرضا والذكر والشكر والانابة والخشية والتقوى والمراقبة والفكرة والاعتبار والخوف والرجاء والصبر والقناعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق والوجد والوجل والحزن والندم

والحياء والخجل والتعظيم والاجلال والهيبة ، ولكل عمل من هذه الاعمال الظاهرة والباطنة علم وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد .

ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .

فاذا قلنا علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التى هى على الجارحة الباطنة وهى القلب . كما انا اذا قلنا علم الظاهر أشرنا الى علم الاعمال الظاهرة التى هى على الجوارح الظاهرة ، وهى الاعضاء ، وقد قال الله تعالى : « **وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** » فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات . والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات ، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر ، وقد قال الله عز وجل : « **ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » فالعلم المستنبط هو العلم الباطن ، وهو علم أهل التصوف ، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك .

فالعلم ظاهر وباطن ، والقرآن ظاهر وباطن ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وباطن ، والاسلام ظاهر وباطن .

ولا خلاف بين أهل العلم ان فى أصحاب رسول الله من كان مخصوصا بنوع من العلم ، كما كان حذيفة مخصوصا بعلم أسماء المنافقين ، وروى عن على بن أبى طالب انه قال : « علمنى رسول الله سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك أحدا غيرى » . ولا خلاف فى أن أصحاب الحديث اذا أشكل عليهم علم من علوم الحديث لا يرجعون فيه الى الفقهاء ، كما ان الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة فقهية لا يرجعون فيها الى أصحاب الحديث ، وكذلك الذين تكلموا فى مواجيد القلوب ومواريث الأسرار لا يرجعون فى علومهم الا الى رجالهم من أهل الوجدان والبصيرة .

* * *